سر الخلود في شعر أبي العلاء

ايها الحفل الكريم :

حياكم الله بالحسنى . أرجو أن تسمحوا لي قبل الافاضة في الموضوع أن احيي حاضرة بني حمدان ذات التاريخ اللامع ، والعز الراسخ الشامخ ، أيكة أبي الطيب التي اكثر فيها التغريد وأطال فيها النشيد ، وروضة الحارث بن سعيد التي صدح فيها بالمفاخر وغنى بالجليل من المآثر . وان احيي البهاليل من غطارفتها الصيد الذي وصلوا طارف مجدهم بالتليد .

أما بعد فانني كنت شديد الرغبة في أن اتحدث اليكم عن « أبي العلاء في بغداد » لأني احب أبا العلاء واحب بغداد واحب أن اجمع بينهما ، ولكن سبق لي أن تحدثت بهذا الحديث في عاصمة فيصل الثاني ايده الله وحاطه برعايته وقديماً قيل : المعاد معاد وعلى هذا وقع الاختيار على « سر الخلود في شعر أبي العلاء » وكنت اوثر أن اتبسط في هذا الموضوع واشبعه تحقيقاً وتمحيصاً ولكن حديثاً لايزيد عمره على نصف الساعة لايمكن أن يتسع للتحقيق والتمحيص واستخلاص النتائج من المقدمات ولهذا اجدني مضطراً ان اقتصر على شيء وأترك اشياء فأقول :

مضى على الناس زهاء الف عام وهم يتناقلون شعر أبي العلاء ويتدارسونه ويحرصون على اقتنائه وهم في ذلك فريقان : فريق يرفعه الى اسمى مراتب التعظيم والتكريم ، مؤمن بما يدعو اليه مكبرٌ لكل ما يثني عليه ، وفريق آخر يعتقد أن هذا الشعر خليط من حق وباطل وشك ويقين وأن الكثير منه يدعو الى الانحراف عن الصراط السوي صراط الله العزيز الحميد . وكلا الفريقين مجمع على ان هذا الشعر وليد العبقرية الفذة ونتاج العقلية الجبارة وكلاهما حريص على اقتنائه واستظهاره وجعله موضوعاً للنقاش والاستشهاد

في مجالس المسامرة والمذاكرة وفي المساجلات والمطارحات . فما هو السر يا ترى في كل هذه العناية والرعاية مع تباين الانظار فيه وتضارب الأفكار حوله ؟ . . . يمكن الجواب على هذا السؤال بكلمة واحدة فيقال : ان السر في ذلك « جودته » تمشياً مع قانون بقاء الأصلح . ولله اخو خزاعة حيث يقول :

يموت رديء الشعر من قبل اهله وجيده يبقى وإن مات قائله

ولكن هذا الجواب لا يقنع السائل وله أن يسأل ماسر الجودة في الشعر ؟ أفي الفاظه ؟ أم في معانيه ؟ أم في اغراضه ؟ أم في اوزانه وقوافيه ؟...

والجواب على هذا أن شعر أبي العلاء يتحلى بكل هذه المزايا ، فهو جيد في الفاظه جيد في معانيه جيد في اغراضه . فان سعة اطلاع أبي العلاء على اسرار العربية مكنته من ترصيع شعره بالبارع من الألفاظ الناصع منها . وانا زعيم بأنه لو جمع جامع ما جاء في شعر أبي العلاء من فرائد الألفاظ ونوابغ الكلم لاجتمع له معجم طريف في بابه يغني الناظر فيه عن الكثير من معاجم اللغة . أما المعاني التي طرقها أبو العلاء فهي غاية في الدقة والطرافة والابداع والاختراع مع الكثرة في التنوع والتفرع والتوليد والتجديد . وأما الأغراض فقد نهج فيها منهجاً اختطه لنفسه وابتدعه ابتداعاً خالف فيه من قبله ولم يلحقه فيه من بعده .

وهنا يمكن أن نقسم شعر شاعرنا الى قسمين : القسم الأول شعره في الشطر الأول من حياته والثاني شعره في الشطر الثاني منها .

أما القسم الأول فهو فيه متبع اكثر منه مبتدعاً فقد رمى فيه الى الأغراض التي كان يرمي اليها شعراء زمانه ومن سبقهم على انه تنكب بعض الأغراض التي تصم الشعر وتحط من كرامة الشاعر ، مثل المجون والهجاء وغزل المذكر والأعابيث التي كان يتعاطاها الخلعاء من الشعراء ، على أن الناقد البصير ليجد في شعره الأول نفحة تنم عن اتجاهه الفلسفي

فإنا نجده عندما يطلق لنفسه السير على سجيتها تندفع به في مسالك عميقة من الفلسفة قلَّ ان سمعنا بمثلها من شعراء زمـانه . خذ مثلاً على ذلك ما جاء في صدر مرثيته لأبيه وصدر مرثيته لصديقه الفقيه وهما من أوالي شعره ففي الأولى يقول :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي ... يراد بنا والعلم لله ذي المن
اذا غيب المرء استسر حديثه ... ولم تخبر الأفكار عنه بما يغني
طلبت يقيناً من جهينة عنهم ... ولن تخبريني يا جهين سوى الظن
فان تعهديني لا أزال مسائلاً ... فاني لم اعط الصحيح فاستغني
وإن لم يكن للفضل ثم مزية ... على النقص فالويل الطويل من الغبن

وفي الثانية يقول :

صاح هذي قبورنا تملأ الرّ ... حب فأين القبور من عهد عادِ
خفف الوطء ما اظن اديم الأ ... رض إلا من هذه الأجساد
خلق الناس للبقاء فضلت ... امـة يحسبونهم للنفـادِ
انما ينقلون من دار اعمالٍ ... الى دار شقوةأو رشادِ
ضجعة الموت رقدة يستريح ... الجسم فيها والعيش مثل السهادِ

وهذا يترجم عن نفسٍ أقلقها الشك في أمور واطمأنت الى اليقين في أمور ، فهي في الحالة الأولى تلح في التسآل وفي الحالة الثانية تطمئن الى برد اليقين .

أما القسم الثاني من شعر شاعرنا فقد سلك فيه مسلكاً خاصاً ابتدعه لنفسه ابتداعاً تنكب فيه جميع الأغراض التي كان ينظم فيها المتقدمون من الشعراء والمتأخرون واتجه الى درس أمور لا عهد للشعراء بدراساتها واتخذ في ذلك من عقله اماماً مرشداً ومناراً هادياً يعرض عليه جميع ما يعن له من شؤون الملكوت في السموات والأرض فيقر ما يقره وينفي ما ينفيه ويقف موقف الشك فيما يعجز العقل عن البت فيه :

يرتجي الناس أنْ يقوم إمام ... ناطق في الكتيبـة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقل ... مشيراً في صبحـه والمسـاء

فاذا ما أطعته جلب الرحمة عند المسير والارساء

نهاني عقلي عن أمور كثيرة وطبعي اليها بالغريزة جاذب

والعقل يسعى لنفسي في مصالحها فما لطبع الى الآفات جذاب

تركت مصباح عقل مااهتديت به والله أعطاك من نور الحجى قبسا

فشاور العقل واترك غيره هدراً فالعقل غير مشير ضمه النادي

وصرف جل جهوده في دراسة أحوال الانسان فحلل غرائزه وطباعه كما حلل أخلاقه وعاداته ، وأنعم النظر طويلاً في أديانه ومعتقداته كما أنعم النظر في حياته ومماته وأولية أمره وآخرته . وإذا كان لا بد لنا من ضرب الأمثلة في هذا الباب فهاك طرفاً منها :

انتهت به دراساته للغرائز البشرية الى أن هذا المخلوق المسمى بالانسان مطبوع على الشر مجبول على العدوان وإذا صدر منه الخير فانما يكون ذلك لعلة :

شر اشجار علمت بها شجرات أثمرت ناسا

حملت بيضاً وأغربة وأتت بالقوم أجناسا

كلهم ضمت جوانحه ماردا في الصدر خناسا

أتعبتم السابح في لجه ورعتم في الجو ذات الجناح

هذا وأنتم غرض للردى فكيف لو خلدتم يا قباح

ما أنتم بالنبات الحميـ د ولا بالنخيل ولا بالعُشر

ولكن قتاد عديم الجناة كثير الأذاة أبى غير شر

ما فيهم بر ولا ناسك إلا إلى نفع له يجذب

أفضل من أفضلهم صخرة لاتظلم الناس ولا تكذب

أما المعتقدات فقد طاف بها طواف خبير بصير فانتهى به المطاف الى الاعتقاد بوجود خالق حكيم متصف بجميع صفات الكمال منزه عن جميع صفات النقص :

اثبت لي خالقاً حكيماً ولست من معشر نفاة

عجبي للطبيب يلحد في الخا لق من بعد درسه التشريحا

اذا كنت من فرط السفاه معطلاً فيا جاحد اشهد أنني غير جاحدِ
اخاف من الله العقوبة آجلاً وازعم أن الأمر في يد واحدِ

الله حق وابن آدم جاهل من شأنه التفريط والتكذيب
واللب حاول أن يهذب اهله فاذا البرية ما لها تهذيب

اما النبوات واليوم الآخر فانه كان يدور فيها في ليل من الشك فتارة يقف على مطمئن من الاثبات وتارة يندفع الى شفا الانكار فبينا نسمعه يقول :

دعاكم الى خير الامور محمد فليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تمجيد من خلق الضحى وشهب الدجى من طالعات وآفل
فصلى عليه الله ماذر شارق وما فت مسكاً ذكره في المحافلِ

ويقول :

أحسن بهذا الشرع من ملة يثبت لا ينسخ فيما نسخ

ويقول :

وجدنا اتباع الشرع حزماً لذي النهى ومن جرب الأيام لم ينكر النسخا
ومن يعف عن ذنب ويسخ بنائل فخالقنا اعفى وراحته اسخى

ويقول :

وقدرة الله حق ليس يعجزها حشر لخلق ولا بعث لأموات
ولا تطيعن قوماً ما ديانتهم إلا احتيال على أخذ الاتاوات

ويقول :

ما اقدر الله أن تدعى بريته ... من تربهم فيعودوا كالذي كانوا
قديمكن البعث انناداى المليك به ... وليس منا لدفع الشر امكان

ويقول :

وان طال الرقاد من البرايا ... فان الراقدين لهم مهب

فبينا هو كذلك اذ نسمعه يقول :

إن الديانات القت بيننا احناً ... وعلمتنا افانين العداوات

ويقول :

إن يصحب الروح عقلى بعد مظعنها ... للموت عني فأجدر أن ترى عجبا
وإن مضت في الهواء الطلق هالكة ... هلاك جسمي في تربي فوا شجبا

ويقول :

واوصال جسم للتراب مآلها ... ولم يدر دارٍ اين تذهب روحها

ويقول :

قلمت ظفري تارات وماجسدي ... الا كذاك متى ما فارق الروحا

ويقول :

ايرجون ان اعود اليهم ... لا ترجوا فانني لا اعود
ولجسمي الى التراب هبوط ... ولروحي الى الهواء صعود

ويقول :

وروح الفتى اشبهت طائراً ... اطير فما عاد لما نفر

ويقول :

وجبر وكسر له في الزمان ... ويكسر يوماً فلا ينجبر

ويقول :

سنؤوب في عقبى الحياة مساكنا ... لا علم لي بالأمر بعد مآبها

ويقول :

لو جاء من اهل البلى مخبر ... سألت عن قوم وأرخت
هل فاز بالجنة عمالها ... وهل ثوى في النار نوبخت

ويقول :

لا حس للجسم بعد الروح نعلمه فهل تحس اذا بانت عن الجسد

ويقول :

أرى قبساً في الجسم يطفئه الردى وما دمت حياً فهو ذا يتلهب

وفي هذا ما فيه من الحيرة الحائرة التي تجهد العقل وتكده ثم تتركه يدور في متاهات المجهولات وآخر ما قرأت له في هذا الباب قوله :

اقيم خمسي وصوم الدهر آلفه وأدمن الذكر ابكاراً بآصال
عيدين افطر في عامي اذا حضرا عيد الأضاحي يقفو عيد شوال
واعبد الله لا ارجو مثوبته لكن عبادة اكرام واجلال
اصون ديني عن جعل اؤمله اذا تعبد اقوام بأجمال

على انه كبير الثقة بأن الدين بمجموعه إنما هو وسيلة لتهذيب النفوس وصقلها وتصفية الأرواح من ادران الشرور والسمو بالاخلاق الى اوج الكمال :

صم ثم صلّ وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعاً فلست بناسك
جهل الديانة من اذا عرضت له اطماعه لم يلف بالتماسك

ما الخير سوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غلٍ ومن حسدِ

توهمت يا مغرور انك ديّن عليّ يمين الله مالك دين
تسير الى البيت الحرام تنسكاً ويشكوك جار بائس وخدين

لعل اناساً في المحاريب خوفوا بآي كناس في المشارب اطربوا
اذا رام كيداً في الصلاة مقيمها فتاركها عمداً الى الله اقرب

والدين انصافك الاقوام كلهم واي دين لآبي الحق إن وجبا

ونظر في الحياة فرأي انها صلة بين روح وجسد وانها عبء ثقيل وانها

مجموعة من التكاليف المضنية وان التخلص منها ربح وفوز مبين :

وما العيش الا علة برؤها الردى ... خل سبيلي انصرف لطياتي

ويقول :

كأس المنية اولى بي واروح لي ... من أن اكابد اثراءً واحواجا

ويقول :

العيش افقر منا كل ذات غنى ... والموت اغنى بحق كل محتاج

اذا حياة علينا للأذى فتحت ... باباً من الشر لاقاه بارتاج

ويقول :

رب روح كطائر القفص المسجو ... ن ترجو بموتها التسريحا

ويقول :

متى الق من بعد المنية اسرتي ... اخبرهم أني خلصت من الأسر

ويقول :

صمت حياتي الى مماتي ... لعل يوم الحمام عيد

ويقول :

ان السيوف تراح في اغمادها ... وتظل في تعب اذا لم تغمد

ويقول :

ضجعة الموت رقدة يستريح ال ... جسم فيها والعيش مثل السهاد

ويقول :

تعب كلها الحياة فما اع ... جب إلا من راغب في ازدياد

ويقول :

إن يقرب الموت مني ... فلست اكره قربه

من يلقه لا يراقب ... خطباً ولا يخش كربه

ويقول :

ايا جسد المرء ماذا دهاك ... وقد كنت من عنصر طيب

تصير طهوراً اذا ما رجعت ... الى الاصل كالمطر الصيب

ويقول :

اذا افترقت اجزاؤنا حط ثقلنا ونحمل عبأً حين يلتئم الشعب

ونظر في موقف الانسان تجاه سائر انواع الحيوان فحكم على الانسان بأنه معتدٍ أثيم لا يشبعه الكثير مهما كثر ولا يقف في وجه مطامعه واقف مهما قوي يفترس الوادع من الحيوان ويعتدي على دره وبيضه وسائر نتاجه واعلن أن عمله هذا ظلم مشين واعلن اكثر من هذا فرض الغراب على مقابلة الاعتداء بالاعتداء قائلاً :

جر يا غراب وأفسد لا ترى احداً الا مسيئاً واي الخلق لم يجر

فخذ من الزرع ما يكفيك عن عرضٍ وحاول الرزق في الأعلى من الشجر

لو كنت حارس اثمار لهم ينعت ثم اقتربت لما اخلوك من حجر

بل اعلن العطف والرقة على الحشرات المؤذية فهذا هو يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا

لافرق بين الأسك الجون تطلقه وجون كندة امسى يعقد التاجا

ولسنا نريد استقصاء آراء ابي العلاء في الانسان وما يحيط به من العوارض وانما نريد أن نشير الى أنه نهج في شعره نهجاً مبتكراً واتخذ له موضوعات حية باقية فجاء شعره جامعاً بين الابتكار في الموضوع وبين العمق في التفكير والصراحة في التعبير والبراعة في التصوير وان شعراً يجمع بين هذه العناصر الحية لجدير بالبقاء ما بقيت اغراضه وموضوعاته حية ماثلة وما بقي الفن الذي ابرزه حياً ماثلاً ، وليس غرضي أن اقصر الخلود على شعر شاعرنا الفيلسوف وانما اريد أن اقول ان كل شعر يجمع بين العناصر التي جمعها شعر ابي العلاء من حيوية الموضوع وعمق التفكير وصراحة التعبير وبراعة التصوير فانه لخليق بالعيش الطويل .

سلك ابو العلاء هذا الوادي من الشعر وترك الشعراء في اوديتهم يهيمون يحبرون قصائد الثناء استدراراً لأكف اهل الثراء ويطيلون الهجاء لمن يمنعهم العطاء ويرثون من لا يعرفون ويتهافتون في العبث والمجون تركهم

في ذلك وانصرف الى درس احوال الانسان وما يحيط بـه من خير وشر فأخذ يقرر ويصور ويخترع ويبدع ، فمات الكثير من شعر اولئك الشعراء المنطوي على الثنـاء الزائف والهجاء الباطل والرثاء الكاذب بموت اولئك الممدوحين والمهجوين ، وبقي شعر شاعرنا حياً يطاول ويصاول ويجاهد ويجالد ، فان رأينا بعض شعر المديح والهجاء والرثاء والمجون يعيش فانمـا ذلك لمـا يحمل معه من نادر الصفات الفنية وطريف المعاني الأدبيه أو لمـا يتخلله من الموضوعات الخالدة الباقية فانني ازعم أن قصيدة المتنبي التي هجا بهـا ابن كيغلغ :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضاً نظرت وخلت اني اسلم

لم تتداولها الألسن إلا لما انطوت عليه من بارع الحكم ذات الموضوع الحي الباقي وما عليك إلا أن تنظر في قصيدة ابي العلاء نفسه التي مطلعها :

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شادي

فانك تجد جمهرة المتأدبين يحفظون صدرها ولا يعرفون من سائرهـا إلا النزر اليسير وما ذاك إلا لأن صدرها حيوي الموضوع خالد الأثر على الزمن واما باقيها فانه كسائر شعر الرثاء يزيد عليه أو يساويه .

واني لأزعم أن الكثير من شعر أبي العلاء لم تنكشف مخبآت معـانيه لمعاصريه لبعد ما بين عقليته وعقليتهم وفرق ما بين نظرته ونظرتهم خذ مثلاً على ذلك قوله في ساسة زمانه :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤهـــا

فان كلمته هذه مع صراحتها لم يتوضح معناها جلياً الا في هذه العصور المتأخرة عندما ذر قرن الديمقراطيات في الغرب ثم في الشرق مع أن رجال النهضة الاسلامية الأول كانوا يدركونها ويعملون بمقتضاها ولكن تتابع القرون وتتابع الكوارث طمست معالمهـا حيناً من الدهر . وسيبقى كثير من شعر أبي العلاء كامن المعاني الى أن تفسره اعمال الاجيال المقبلة واحوالها لأن الرجل كان ينظر الى الحقائق بمجهر متقن الصنـع فيرى

الكثير مما يخفى على غيره ولا يظنن ظانٌّ أننا عندما نكبر في أبي العلاء عقله الجبار وعبقريته الفذة ندعو الى اعتناق مذاهبه كلها لاننا اذا اكبرنا فيه اكباره للعقل وشغفه بالخير ودعوته الى الحرية على اختلاف ضروبها والعدالة والمساواة بأدق مقاييسها والى التحلي بكل خلق كريم والتخلي عن كل عمل رذيل . واذا اكبرنا فيه اتساع معارفه في علوم الكون والشرائع وفنون الآداب فاننا لا ندعو الى اعتناق مذاهبه في الحياة المتقشفة الجافة وهجر جميع متع الحياة البريئة والدعوة الى الزهد في زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق والتبرم بالحياة واستثقال اعبائها فان الأحوال التي اكتنفت حياته جعلته جزوعاً كثير الضجر عديم الامل رزيء المنى وهذه كلها من خويصات نفسه لا يجمل بأبناء هذا العصر ولا سيما الناشئة منهم أن ينحدروا معه ويتخذوا منه قدوة فيها فان الله جل وعلا خلق لهم مافي الأرض جميعاً ليتمتعوا بالحلال الطيب وينعموا بالعيش الرافه الهنيء « قل من حرّم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق » ..

طه الراوي